الطَّفَلُ والطُّفَيل

محمد بن أحمد الأنصاري

الطَّفَل: إقبال الليل على النهار بظلمته، والظلمة نفسها أيضاً والطُّفَيل: تصغير طِفْل، وقد سُمِّيَ به - أعني: الطُّفَيل - جملة من العرب قبل الإسلام وبعده، ومن أشرف من حمل هذا الاسم الصحابي الجليل الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه وأرضاه، ذو النور، الذي قدم مكة قبل الهجرة فبذلت قريش جهدها في تحذيره من رسول الله صلى الله ومن سماع شيء منه حتى جعل القطن في أذنيه خشية سماع شيء مما حُذر منه، فأبى الله إلا أن يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلم ويعود إلى قومه داعياً إلى الله ورسوله، ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له آية، فجعل الله تعالى في وجهه نوراً، فقال: يا رسول الله، إني أخشى أن يقولوا هذه مثله، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار ذلك النور في سوطه، فهو المعروف بذي النور. وأسلم بعض قومه، وأقام الطفيل في بلاده إلى أن هاجر بعد الخندق فيما بين السبعين إلى الثمانين بيتاً من قومه، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، وعاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد يوم اليمامة رضي الله عنه وأرضاه.(١)

وممن حمل هذا الاسم رجل من أهل الكوفة يقال له طفيل بن زلال من بني عبد الله بن غطفان، وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، وكان يقال له طفيل الأعراس، وطفيل العرائس، وكان أول رجل لابس هذا العمل في الأمصار فصار مثلا ينسب إليه كل من يقتدي به.

وقد ترجم له الزركلي في الأعلام فقال: "طفيل: رأس الطفيليين، وإليه نسبتهم، ومن اسمه اشتق - على الأرجح - التطفل، والتطفيل، وفعل (طفل) و (تطفل)، و (الطِّفليل) بكسر أوله، بمعنى الطفيلي. وفي اللغويين من ذهب إلى أنها من (الطَّفَل) - بفتح الطاء والفاء - وهو إقبال الليل على النهار بظلمته، وهذا بعيد. ومادة التطفيل في اللغة بمعناها اليوم، حديثة، لم تعرف في الجاهلية. ومن الأمثال: (طفيلي ويقترح!) و (أطمع من طفيل) و (أوغل من طفيل) ويقول الرواة أنه كان من أهل الكوفة، وكان ينزل (الحفر) على جادة البصرة إلى مكة. وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها. ويقال له: (طفيل الأعراس) و (طفيل العرائس) وقال بعضهم أنه كان من موالي الخليفة عثمان بن عفان، ثم سكن الكوفة. فإن صح هذا، فيكون من أبناء النصف الأول من القرن الأول للهجرة - النصف الثاني من القرن السابع للميلاد- وفيهم من ينسبه: طفيل بن زلال، من بني هلال ابن عامر. وشهرته الغطفاني، قال ابن قتيبة: هو من ولد عبد الله بن غطفان بن سعد، من قيس عيلان".(٢)

وفي كتب الأدب جملة من أخبار الطفيليين ونوادرهم، بل خصهم الخطيب البغدادي رحمه الله بكتاب أسماه: (التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم) بين في أوله أصل التسمية واشتقاقهما ثم حكم الشرع في ذلك السلوك.

وخلاصة القول في ذلك أن التطفل من أخلاق اللئام، وسجايا الأوغاد، ومنهي عنه في الشرع.

ثم إنه تُوُسّع في إطلاق التطفل على كل داخل فيما ليس هو من أهله، أو مقتحم لما لا يحسنه، أو مشْرَئِبٌّ للاطلاع على ما لا يعنيه، أو نحو ذلك، والتطفل على موائد الناس وطعامهم وشرابهم على ما فيه من قبح وشناعة فليس هو الأسوء فإنه ربما دعت إليه حاجة من فقر أو غربة أو غير ذلك؛ ولذلك فإن هذا النوع من التطفل قد يُحتمل وتتقبله طبائع الكرام دون غضاضة، وغيرهم ربما يصبر عليه على مضض.

أما النوع الأسوء من التطفل والذي لا يُقبل ولا يُحتمل بحال فهو التطفل على أمور الناس وشؤونهم وخصوصياتهم وذلك ما لا يرضاه أحد ولا يتسيغه، بل ربما تجد أنه كلما كان المرء متصفا بالكرم كان أبعد عن قبوله والرضا به، وقد يكسو المتطفل فعله ذلك - على قبحه - بمعنى من المعاني الشريفة كالاطمئنان على الأحوال، أو التعارف، أو الملاطفة، أو إسداء النصح، أو طلب المشورة في أساليب ملتوية، وحيل متنوعة تمجها الأذواق، وتنفر منها مكارم الأخلاق.

والغالب في الناس أنهم لا يشحون على أقاربهم وأصدقائهم وزملائهم بما يعنيهم من أحوالهم كل بحسبه، بل ربما يبادرون بالحديث معهم بذلك دون سؤال منهم عنه أو ظهور تطلع إليه، لكن ما شأن من لا يعنيه شيء من ذلك في قليل ولا كثير، وربما لا يوجد بينه وبين المتطفل عليه سابق معرفة قبل ذلك المقام، وربما لن يلقاه بعده أيضاً.

وفي حديث جامع من أحاديث المصطفى صلى عليه وسلم بيان لعلاج هذه الآفة وقطع لما يوصل إليها وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)).

وهذا الحديث من الأحاديث الأربعة التي قال عنها الإمام أبو داود رحمه الله إن كل حديث منها ربع العلم.

وقد قيل: من طلب ما لم يعنه فاته ما يعنيه. كما قيل أيضاً: من ترك ما يعنيه، دفع إلى ما لا يعنيه.
ومن كلام أكثم بن صيفي: "الحزم حفظ ما كُلفت، وترك ما كُفيت".

ومما يروى عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : "كفى بالمرء عيباً أن تكون فيه خلة من ثلاث: أن يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه، أو يعيب شيئاً ثم يأتي مثله، أو يؤذي جليسه فيما لا يعنيه".
اللهم اجعلنا ممن شغلته بما يعنيه عما لا يعنيه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد بن أحمد الأنصاري

(١) قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي في الروض الأنف (٣/٢٢٦) وما بعدها.
(٢) الأعلام (٣/٢٢٧).